إعداد الجهاز والاشراف على النفقة تحقيقاً لرغبة خمارويه ، حينما قدم إليه ثبت النفقة ذكر له أنه لم يبق منها للتسوية سوى « كسر » قدره أربعمائة ألف دينار ، وإذن فما بالك بالنفقة كلها إذا كان هذا كسراً منها فقط ! »(١)

وفى أواخر سنة ٢٨١ هـ ، تم تجهيز قطر الندى ، واتخذت الأهبة لارسالها إلى الخليفة . وهنا أيضاً يجب أن نرجع الذهن إلى قصص ألف ليلة وليلة ، لكى نتصور ما أحيطت به رحلتها من مصر إلى بغداد من مظاهر النعماء والفخامة والترف . فقد شاء خمارويه أن يجعل لابنته من تلك الرحلة الشاقة نزهة بديعة ، فأمر أن يقام على طول الطريق من مصر إلى الشام ثم إلى بغداد فى نهاية كل مرحلة منزل وثير تنزل فيه قطر الندى وحاشيتها ، وتتمتع فيه بجميع وسائل الراحة . وأنفقت فى هذه الرحلة مبالغ طائلة ؛ وخرجت قطر الندى من القطائع فى ركب ملكى عظيم يشرف عليه ابن الخصاص متدوب الخليفة وجماعة من الأعيان ، ومعها عمها شيبان بن أحمد بن طولون ؛ وصحبتها عمتها المبلسة إلى آخر حدود مصر من جهة الشام ؛ « وكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش ، فيه جميع ما يحتاج إليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل مايصلح لمثلها فى حال الاقامة ، فكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس »(٢)

ووصل ركب قطر الندى إلى بغداد فى فاتحة المحرم سنة ٢٨٢ هـ فأنزلت فى دار ساعد . وكان المعتضد غائباً بالموصل ، فلما علم بمقدمها عاد إلى بغداد ، ووزفت إليه فى الخامس من شهر ربيع الأول فى حفلات عظيمة باذخة أسبغت على بغداد مدى أيام حللا ساطعة من البهاء والبهجة . وسحرت قطر الندى الخليفة بجمالها وخلالها البارعة ، وتفوقت فى حظوتها لديه على سائر حظاياه . ومما يروى أن المعتضد خلا بها ذات يوم فى مجلس أنس ، فلما ثقل رأسه من الشراب وضع رأسه على حجرها ، فلما استغرق فى النوم ، وضعت رأسه على وسادة وغادرت المجلس ؛ فلما استيقظ ولم يجدها استشاط غضباً وناداها وعنفها على تصرفها ، فأجابته : « ياأمير المؤمنين ماجهلت قدر ماأنعمت به علىّ ، ولكن فيما أدبنى به أبى أن قال : لاتنامي مع الجلوس ، ولا تجلسى مع النيام(٣) »

محمد عبد الله عنان

(١) المقريزى فى الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١١٢
(٢) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ١١٣ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٨

من رسائل الغير

« كل شيء يزدهر فى مملكة تمتزج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها « لابروبير » فى كتابه « الأخلاق » تقابلها كلمة أخرى في كتاب للهند عن رجل دخل على مليكه فقال له : « أيها الملك إن بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفسنا متعلقة بنفسك .. »

وضعتنى هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت فى نفسى إن هذه النظرة إلى « الملك » لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادىء السياسية أو العقائد الدينية . فالشرق والغرب لا يتفقان هكذا إلا على شيء يخرج من نبع طبيعتنا الانسانية . إن الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائماً ترى الأمة هى الجسم والملك هو « الرأس » بمعناها الطبيعى « الفسيولوجى » . هذا صحيح لاريب فيه ، والملك هو الحاكم المطلق فى نظام الملوكية المطلقة . أما والأمة فى النظم الديمقراطية هى التى تتولى الحكم فمن الحق أن نتساءل عن صحة تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهدينا إلى هذه النتيجة : إن الأمم فى شبابها كالفتى ، تستهوى عقله كل مظاهر القوة ، وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ؛ فهى تجمع كل السلطة لتعطيها ذلك الحاكم المطلق الذى يدير كيانها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، إلى أن تمضى أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة فى طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها المادية بنفسها ، وتترك مليكها يشغل بما يشغل به الرأس الحقيق من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا نرى الملك فى الشعوب الديمقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادى إلى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس فى جسم الانسان المفكر ، فينقطع هو إلى التوجيه الفكرى لأمته وتشجيع العلوم والآداب والفنون ، وختم كل مظاهر النشاط الأدبى والمادى فى الدولة بطابع الحضارة . فالملك فى كل زمان ومكان هو الرأس دائماً ؛ على أنه فى الأمة الفتية رأس فتى ، وفى الأمة العريقة رأس رجل .

توفيق الحكيم